خفقات قلب

بقلم
عبدالحميد جودة السحار

دخلت غرفتها لتنام ، فراحت تلقى على كل ما فى الغرفة نظرة وداع ، انها عاشت مع هذه الاشياء التى تملأ الغرفة سنين طويلة، حتى صارت قطعة منها ، هذا الصوان وهذه المرآة وهذا السرير وهذه الشماعة وقطع ملابسها التى علقت عليها ، كل اولئك قريب من نفسها ، حبيب اليها .

وترامى الى سمعها صوت امها واصوات اخواتها فارهفت السمع كأنما تصغى الى لحن شجى ، فخفق قلبها خفقات كلها اسى وطفرت الدموع من عينيها ، فهذه آخر ليلة تمضيها فى هذا البيت ، بين اهلها ومع اشيائها التى تحبها ، قبل ان تحمل الى بيت الرجل الذى سيصبح بعد ان يمضى الفد وينتصف الليل زوجها .

انها احبت عصام وهو فارس احلامها وكادت تطير من الفرح يوم جاء يخطبها، بيد انها فى هذه الليلة تستشعر خوفا يملأ فؤادها ، انها تخاف ذلك المجهول الذى ستقدم عليه ، تخاف ان يخبو حب عصام أو يأتى يوم يشيح بوجهه عنها .

والقت بنفسها فى الفراش وصوت يرن فى اغوارها : « لا . عصام يعبدنى ولن يأتى ذلك اليوم ابدا . ولم يهدأ قلبها بل اشتد وجيبه وزادت ضرباته حتى احست انه يكاد يفر من بين ضلوعها .

وشرد خيالها وراحت ايام حياتها تمر امام مخيلتها واذا بلحظات الوداع التى ذاقت مرارتها تطفو على سطح ذهنها . رات نفسها وهى صغيرة تلهو فوق سطح الدار مع خروف العيد . انها احبت ذلك الخروف حبا جما حتى انها فى هذه اللحظة تراه بوضوح وهو ينظر اليها بعينيه اللتين كانت ترى فيهما الترحيب بقدومها ، كانت تقدم له الطعام قبل ان تتناول طعامها، وكانت

السعادة تغمرها كلما جرت فوق السطح وراح يعدو فى مرح خلفها . كان أول صديق تفتح له قلبها ، حتى انها كثيرا ما كانت تحلم به فى منامها .

وجاء اليوم المشئوم ، يوم سحبه الجزار امام عينيها وذبحه ، ان الصرخة التى صرختها فى ذلك اليوم عادت تدوى فى اذنيها ، ودمه المسفوح يتراءى لخيالها فيعيد الغصة الى حلقها ، ويخز قلبها ويجعله ينقبض اسى وحزنا .

ورات اباها وهو يحملها ويضمها الى صدره فى حنان ، ورن فى اذنيها صوته وهو يقول : « لا تخافى.. هذا خروف العيد .نذبحه لنأكله » واخفت وجهها فى صدره وهى تجهش بالبكاء ، لا خوفا من الدم المراق ، بل حزنا على حبيبها الذى ذبحوه ، وكان اول فراق تجرعت غصصه فى حياتها .

ورات نفسها وهى صغيرة ، تنطلق فى سيارة هى وامها وابوها واخوها فى طريق صحراوى ، كانت سعيدة بالرحلة ، وكانت تسأل امها وهى فى الطريق عن كل ما تقع عليه عيناها ، بيد ان امها كانت تأمرها بالصمت ، فكانت تمسك لسانها على كره منها دون ان تعرف سببا منطقيا لذلك الامر ، وكان ذهنها الصغير يفسر ذلك بانه ضرب من التعسف الذى جبل عليه الوالدان !

وبلغت السيارة المطار وهبطوا منها وقعت عيناها على طائرات رابضة على الارض . كانت هذه اول مرة ترى فيها طائرة ، فالتفتت الى ابيها وقالت :

ـ بابا ، اركب الطيارة ؟

فالتفت اليها اخوها وقال لها :

ـ تعالى معى .

وحملها وقبلها وترقرقت الدموع فى عينى الام ، ولم تدر هى لذلك سببا، وهمت بأن تسأل امها عن سبب بكائها الا انها خشيت أن تنهرها وتامرها بأن تحبس لسانها فى حلقها .

وحانت ساعة الوداع ، وراح اخوها يقبل امه واباه واختها ثم حملها وقبلها وسار الى الطائرة دون ان يأخذها معه، وبكت الام للفراق، وبكت اختها الكبرى وارتسمت على وجه الاب ايات الحزن، بينما راحت هى تصرخ وتواول وتقول:

ـ اركب الطيارة .. اركب الطيارة.

وغاب اخوها فى جوف الطائرة وأغلق الباب خلفه وطارت به الطائرة وعيونهم جميعا معلقة بها حتى ابتلعها الافق البعيد ، فقفلوا عائدين دونه ، لا يكاد ذهنها الصغير ان يفقه من الامر شيئا كثيرا .

وفى يوم جاء ساعى البريد يحمل رسالة ، اجتمع الام والاب واختها الكبرى حولها واذا بهم جميعا يتحدثون لحظة يرفعها الى عالم مجنح ينبض عن اخيها الغائب حديثا كله بشر ، وشاءت ان تشترك معهم فى الحديث ، فسألت اباها قائلة :

ـ متى سيعود ؟

فقال الاب فى صوت تكاد تسمعه فى ضميرها اللحظة :

ـ بعد سنتين .

ورأت ـ وهى فى سريرها ممدده ـ وجه الام الذى ارتسم فيه الشوق واللهفة والخوف والاسى. انذلك الوجه المعبر الذى عكس فى لحظة كل تلك المشاعر لا يزال حيا فى ذاكرتها .

واصبحت الرسائل الواردة من اخيها ، شيئا مميزا فى حياتهم ، اذا جاءت اقبل على الاسرة كلها البشر والامل ، واذا تأخر ورودها كان طابع البيت الخوف والتوجس والقلق ، وتعلمت فى تلك الحقبة من حياتها ان ورقة تفد مع ساعى البريد قادرة على ان تثير فى النفوس مشاعر كثيرةمتباينة

ورأت نفسها وهى تحمل مرةاخرى الى المطار ، كان فى السيارة ابوها واخوها واختها ، انها لا تكاد تحس ان زمنا طويلا يقدر بسنتين قد مضى بين ذهابها الاول وهذا الذهاب ، انها فرحة لان اباها وامها واختها فى ذلك اليوم تركوها تثرثر كما تشاء ، وكانوا جميعا يسارعون للرد على اسئلتها .

ووقفوا فى المطار ينتظرون وهم يرصدون فى السماء ، وتركوها تجرى هنا وهناك ، وتفعل ما تشاء دون ان ينهرها أحد ، وخطر على قلبها ان تجرى ناحية طائرة رابضة على الارض، تصعد اليها تكتشف ما بداخلها ، بيد انها خشيت ان يغلق بابها خلفها وتقلع بها كما اقلعت باخيها الى مجهول جعل قلبها الصغير يخفق بين ضلوعها خوفا .

وهبطت طائرة على الارض، وهرعت الاسرة الى السور الحديدى ، ووقفت تنظر اليها فى لهفة ، وحملها ابوها وهو يقول لها ان اخاها سيهبط من تلك الطائرة ، واحست جسد ابيها يرتجف ، الا انها ظنت انه يداعبها فابتسمت وراحت تعبث فى اذنه .

وانطلقت من امها صرخة فرحاعقبتها انهمار دموع من عينيها ونداءات اقرب الى الغمغمة : ابنى .. ابنى ، وراحت هى ترقب الهابطين على سلم الطائرة وهى تعجب فى نفسها وتتساءل : كيف استطاع جوف الطائرة ان يتسع لكل هؤلاء الناس .

ووقعت عيناها على اخيها وهو يلوح لهم بيده فى سرور ، ورأت اعمق المشاعر على الوجوه ، والتقت الاسرة بالاخ الذى عاد ، وكان عناق وكانت قبلاتوعرفت ان بعض الفراق وان طال يعقبه لقاء حار لذيذ .

وتململت فى سريرها ، وحاولت ان تفرى النوم بالطواف بجفونها ، بيد ان عينيها سرعان ما فتحتا وتطلعتا الى سقف الغرفة ، وشرد خيالها وارهفت أذنيها للاصوات الآتية من الماضى البعيد، انها تسمع فى هذه اللحظة صراخا وعويلا ترى ونفسها وهى تنهض من سريرها الصغير مفزوعة وتجرى الى حيث ينبعث الصوات وهى مرعوبة ويزداد رعبها لما ترى امها تجرىنحوها وهى تولول ثم تحملها وتقول لها :

ـ ابوك مات .. ابوك مات .

وانهمرت الدموع من عينيها لما رأت الجميع يبكون ، وذهبت الى حيث كان ابوها مسجى فى فراشه ، كان نائما ، اسبل عينيه واطبق فهمه ، ولم يعد يسمع الضجيج المنبعث من حوله بينما كان يصحو من نومه اذا ما سار احد فى غرفته على اطراف اصابعه .

ونظرت الى ابيها فى استطلاع ، وراحت تتساءل فى نفسها : كيف مات؟ انها تذكر ان خروفها الذى احبته قد مات بعد أن ذبحوه ، اما ابوها فهو نائم كما اعتاد ان ينام . ترى هل سيصحو فى الصباح ويقبلها كما اعتاد ان يقبلها كل يوم .

وجاء الصباح ولم يستيقظ ابوها بل وضعوه بعد أن لفوه فى قماش ابيض فى نعش وحملوه على الاعناق وخرجوا به من البيت بين البكاء والعويل، وبكت مع الباكين ، وفى المساء انتظرت عودته ولكنه لم يعد بعدها ابدا . وعرفت ان الموت يفرق بين الاحبه ، ويقوض هناءة البيوت التى كانت آمنة مطمئنة .

واحست غصة فى حلقها ، والدموع تبلل عينيها فنهضت من فراشها ، وأخذت تذرع الغرفة جيئة وذهابا وهى تناجى روح ابيها :

ـ ابى .. ليلة زفافى الليلة القادمة. كم كنت اشتاق ان تراني وانا فى ثوب الزفاف ، انى اتحرق شوقا الى قبلة من قبلاتك الحانية التى كنت تضعها على خدى .. ابى ! انا واثقة انك غدا ستكون معنا .. تبارك زواجنا انا وعصام . أاعجبك عصام يا أبى ؟ . انى أحبه ، وأنا واثقة من انك تحبه لأنى أحبه . أبى ! ليتك تستطيع أن تنبئنى بما يخبئه لى قدرى مع عصام . أنا واثقة يا أبى من أن مستقبلى معه سيكون كله سعادة وهناء . سيكون معى كما كنت مع أمى . سيرعانى كما كنت ترعاها ، ولكنى ابتهل الى الله يا أبى الا يتركنى أنا وأولادى كما تركتنا قبل الأوان .

ونظرت من خلال النافذة الى السماء وقالت فى حرارة وابتهال :

ـ يا رب ! يا رب ! يا رب !

ولم يتحرك لسانها بشىء وان كان قلبها قد افعم بالتوسل الى الله ان يجنبها الترمل الذى ذاقت امها مرارته

وراحت تغدو وتروح فى الغرفة خافقة القلب ، شاردة اللب فرات نفسها وهى تلميذة فى المدرسة تلعب مع زميلاتها ، انها تجرى معهن وهى مسرورة ، وقد حدث ان ارتطمت وهى تجرى باحداهن ، فما كان من الزميلة الا ان لطمتها على خدها ، فهرعت زميلة اخرى الى المعتدية وقالت لها فى تعنيف:

ـ حرام عليك . انها يتيمة .

وكادت الارض تميد بها وهى فى الغرفة كما مادت بها فى ذلك الوقت ، احست ذل اليتم ، وملأت جوانحها مسكنة آلم لنفسها من كل الم اصاب جسدها فى يوم من الايام ، فقد برات كل الجروح التى أصابت البدن أما جرح اليتم فقد ظل غائرا فى وجدانها، يزداد عمقا مع الايام .

وذرعت الغرفة وهى تتلفت فى شرود، ثم راحت تغمغم :

ـ اريد ان انام .. اريد ان انام.

وارتمت فى السرير وأخفت عينيها بيديها واسبغت جفنيها ، الا ان ذهنها لم يغفل ابدا ، راح يوسوس لها بنكتة سمعتها يوما : راح شحاذ يمر بالطرقات وهو يصيح : ارحموا يتيما عنده ثمانون سنة » . ورفت على شفتيها بسمة ، ودارت فى سريرها دوره وهى تقول :

ـ ولكنى لم ابلغ العشرين بعد . عرفت اليتم قبل ان اذهب الى المدرسة

وعادت بها الذاكرة الى أيام موت أبيها ، انها بعد ذلك اليوم المشئوم

اصبحت تخاف ان تنام وحدها فى سريرها ، فكانت تهرع فى الليل الى احضان اختها ، فكانت تجد عندها الامن . وعلى مر الايام تعلقت باختها، كانت اذا سارت فى البيت سارت خلفها ، واذا خرجت تشبثت بها ، واذا نامت نامت معها فى سرير واحد.

وتذكرت ذلك اليوم الذى سافرت فيه اختها فى رحلة مع مدرستها ، حاولت فى تلك الليلة ان تنام فى الغرفة وحدها ، الا ان الرعب ملأ جوانحها ، كان يخيل اليها ان الاشباح تتراقص فى انحاء الغرفة ، انها ستنقض عليها من السقف وستطبق عليها من الاركان، وحاولت ان تصرخ بيد أن الرعب عقد لسانها ، فهبت من نومها مرعوبة وراحت تعدو وهى تترقب من الفزع الى غرفة امها ثم اندست فى احضان امها وتعلقت برقبتها .

وطاف بذهنها عصام ، انه منذ الليلة القادمة سينام معها فى سرير واحد ، انها سعيدة سيملأ عصام كل حياتها ، ترى ماذا تفعل لو اضطر العمل عصام الى أن يتركها وحدها ويبيت خارج الدار ؟ ودق قلبها دقات خوف وقلق، وراح عقلها يعمل، فاهتدت الى أن خير ما تفعله ان تعود مرة اخرى الى غرفتها هذه ، فقد قالت أمها انها ستتركها كماهى لاستقبالها اذا مافكرت يوما فى ان تبيت هى وزوجها عندها . زوجها ؟ عصام زوجها ؟ احقا ستصبح غدا زوجة من احبت وانها هى وعصام سينامان يوما فى هذا السرير الذى تمددت فيه واطلقت عنان خيالها لتعيش اسعد احلامها ؟ يا طالما ضمت لطيفة فى هذا السرير وامطرته بقبلاتها!

وضمت الوسادة اليها فى وجد ، وقبلتها فى هيام ، وقد اسبلت جفنيها لترى ما تشاء بعيون خيالها . آه . ما الذ أن يكون الانسان محبوبا ، وأن يكون بين ذراعى من يحب ولو فى عالم الرؤى والاحلام !

وراحت تتذكر اول مرة قبلها فيها عصام ، كانا يسيران على شاطىء النيل جنبا الى جنب ، وكانت الشمس تغيب فى الافق البعيد والطيور تئوب الى اوكارها ، وكانا يتحدثان حديثا هادئا ، بينما كان حديث العيون ساخنا ، كله سحر وبيان ، ورات فى بريق عينيه وميضا حلوا يتدسس فى رقة الى قلبها فيجعله يخفق فى وجد وحنان ، وفى لحظة يرفعها الى عالم لجنح ينبض بالآمال . واستشعرت رغبة فى أن تذوب فيه ، ولم تفزع لما مال عليها وضمها اليه وقبلها قبلة استقرت فى اعماق وجدانها ، وكانت تتذوق لذة طعمها بروحها كلما شردت بأفكارها واطلقت عنان خيالها .

ورن فى اذنيها صوته وهو يقول : « أحبك ولن تكون لى حياة بدونك ، لا بد أن نتزوج » وتقدم يخطبها من امها ، وفاضت سعادتها لما قالت لها امها وهى تضمها اليها فى حنان : «مبارك» وطارت افكارها اليه وجعل يتراءى لها اينما ولت وجهها ، وماعادت تسمع الا نبرات صوته الآسر الجذاب.

انه منذ ان عرفته وهو كل دنياها ، وما من شىء يشوب سعادتها الا ذلك الخوف الذى ينتشر بين جوانحها ، أتشفق على نفسها من فراق البيت الذى شبت فيه ام تخشى ما تخبئه لها الايام ؟

تركت اختها البيت بعد أن تزوجت وانها تحس انها تغيرت كثيرا بعد ان تركته ، انها تفد اليه وفود الزوار ، تتحرك بحساب وتتصرف بحساب ، لم تعد تفعل ما كانت تفعله قبل الزواج، انها تذكر أن أختها كانت تخطف منها طعامها قبل الزواج ، أما بعد أن تزوجت فقد أصبحت ترفض كل ماتقدمه اليها أمها في دلال . انها تحس في أعماقها ان زوج أختها أصبح بالنسبة لزوجته شيئا هاما ، أهم من كل من في بيتهم ، وانها تستشعر الساعة انها لو خيرت بين عصام ، وبين كل من في البيت لاختارت عصام ، ترى الى متى يستمر هذا الحال ؟!

وخفق قلبها خفقات ، وتذكرت زوج اختها ، انها أحست نحوه غيرة بعد أن خطب اختها ، وعرفت انه سيفصل بينهما يوما ، ويحمل اختها بعيدا عنها ، ان هذه الغيرة كانت تتحول في بعض الاحيان الى كراهية ، وكانت تزداد هذه الكراهية كلما حاول زوج اختها أن يترضاها ويداعبها ، كانت تنفر منه ، وترفض في اصرار الحلوى التي يقدمها اليها .

واحست راحة لانها ليس لها اخت اصغر منها ، تضمر لعصام نفس المشاعر التي كانت لزوج اختها . انها كانت ظالمه في مشاعرها ولكن من ذا الذي يبصر الاطفال بالحقائق ؟ ورن في جوفها صوت يردد : « الايام . الايام . الايام » .

وراح خيالها يجري وراء فكرة جديدة ، انها في مثل هذه الساعة من الغد ستصبح زوجة ، ترى ما الذي تعرفه عن حقيقة الزواج ؟ انها التقطت من مجالس امها مع جاراتها بعض اشياء مغلفة بالضباب عن الزواج ، وسمعت من بعض زميلاتها في المدرسة اقاصيص عن العلاقة بين الذكر والانثى ، كانت تثيرها احيانا ، وكانت تملأ قلبها بالرعب احيانا وقرات في بعض الكتب شرحا لا يشفي غله عن التكاثر والتناسل ولم تمدها القصص الا برؤى مثيرة ، تحرك فيها مشاعر من الرغبة والرهبة، اما الحقيقة فانها لم تكشفها بعد . غدا ستمارس التجربة كاملة وتواقع الحياة

ترى ما طعم التجربة ؟ ما مذاقها ؟ ان القبلة تملأ النفس نشوة تنقل الانسان الى عوالم من المتعة تجعل الروح ترفرف في ملكوت الرقة والحنان ، آه لو كانت التجربة امتداد للذة القبلة ، لكانت اعظم متع الحياة .

وتقلبت في سريرها وقد اشتد وجيب قلبها وثارت عواطفها وودت لو طاف بها النوم ، وأراحها من هذه الانفعالات ، قالت لها امها وهي تسير معها الى غرفتها : « نامي يا حبيبتي، فأمامك غدا سهر طويل » . فراحت تهتف في أعماقها وان لم تتحرك شفتاها: « اريد ان انام . اريد ان انام . ولكن النوم خاصمني يا أماه . أنام كيف انام وهذه آخر ليلة لي في هذا البيت ؟ انام ؟ كيف انام ومشاعري كلها ووجداني ، وكل كياني تهفو اليه . الى عصام .. حبيبي عصام .. الا ما الذ الليلة التي تسبق ليلة الزفاف ! انها تفيض بالسحر .. تفور بالقلق ... تمتلىء بالنشوة .. سحرها لذيذ . قلقها مشتهى . نشوتها حبيبة الى القلب الذي استيقظ وابى ان يغفو او يطوف به النعاس .

ومر الليل وهى تتقلب فى الفراش. تجرى وراء خيالها وقلبها يخفق دون ان يتعب من اشتداد وجيبه ، وما لاح فى الافق الشرقى مولد النهار حتى هرع الى غرفتها بعض صديقاتها يتصايحن ويطلبن منها ان تنهض . فالنهار اقصر من ان يتسع لكل ما تود ان تنجزه فيه. واخذوها الى الحلاق وساقوها الى الحمام والساعات تمر سراعا وما احست الا بالليل قد أقبل وسحبوها الى غرفتها والبسوها ثوب الزفاف الابيض ، وجاء عصام ووضع ذراعه فى ذراعيها ، واذا بها ترى فى وضوح عجيب خروفها الحبيب والجزار يسحبه ليذبحه ، فدوى قلبها فى صدرها دويا هائلا ، غطى على دوى دفوف الزفاف .